المنذر بن ماء السماء

ملك الحيرة

٥١٤ — ٥٦٣ م

بقلم يوسف رزق الله غنيمة وزير مالية العراق سابقاً

هو المنذر الثالث ابن امرئ القيس يحيى ابن ماء السماء[1] بلقب امه ماء السماء ذلك اللقب الذي غلب على اسمها لجمالها وحسنها[1] او لكرمها ورقة طبعها[2] وقيل سميت به نسبة إلى السماوة وكانت تدعى بماء فسمتها العرب ماء السماء[3] وقيل كان اسمها ماوية او ماوية بنت عوف ابن جشم بن حلال بن ربيعة بن زيد مناة بن عامر الضحيان بن الخزرج بن تيم الله بن النمر بن قاسط[4] ويقال بل هي ربيعة اخت كليب ونظيرتهن التغلبيين[5] وروى بعضهم ان المنذر لقب ماء السماء لجوده وسخائه كما يملأ قطر الغيث الارض . وعرف المنذر بذي القرنين لضفيرتين كانتا له من شعره[6]

لحكم هذا الملك عهدان تتخللهما فترة فالعهد الاول في زمن قباذ وهو بدء ملكه في الحيرة تولى عرشها بعد وفاة أبيه سنة ٥١٤ وهي السنة السادسة والعشرون من حكم قباذ وعلى ذكر قباذ نقول انه تزيّن بتاج الاكاسرة سنة ٤٨٨ وفي سنة ٤٩٦ طرده جاماسب وحكم دولة الساسانيين. وعاد قباذ ثانية إلى الحكم سنة ٤٩٨ وما كان لقباذ من استيلاء جاماسب على دولته ، حدث للمنذر الثالث . فان الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندي استولى على الحيرة بمعاونة قباذ وطرد المنذر الثالث في سنة ٥٢٩ وبقي عليها حتى سنة ٥٣١ وفي هذه السنة طرد كسرى انوشروان الحارث بن عمرو الكندي واعاد المنذر الى حكم الحيرة وبقي عليها حتى وفاته سنة ٥٦٣ وهذا هو عهد حكمه الثاني[7]

قبل ان نأتي على تاريخ الحيرة في عهد المنذر بن ماء السماء لنقل كلمة في خلق هذا الملك :

---

(١) حمزة الاصفهاني ٧٠ (٢) شيخو : النصرانية وآدابها ٨٨ (٣) معجم البلدان مادة سماوة قال ياقوت ان ماء السماء هي ام النعمان . اما السماوة فهي بادية بين الكوفة والشام تقرى . وقال العسكري السماوة مادة لكليب (٤) الطبري ٢:٩٢ وحمزة الاصفهاني ٧٠ ذكر الطبري اسمها ماوية والاصفهاني ماوية (٥) النصرانية وآدابها ٨٨ (٦) الطبري ٢:٩٢ (٧) ابو الفداء ١:٧٤ ويجعل كوسن دتي برسفال بدء حكم ابن ماء السماء سنة ٥١٣ ونهايته سنة ٥٦٢ م

كان المنذر قوي الشكيمة لا يستميله الوعد ولا يلويه الوعيد يخوض غمارات الموت غير هياب ولا وجل وينزل معامع القتال ثابت الجأش كالاسد الضرغام فيلقى الرعب في قلوب أعدائه وتنهزم فلول جيوشهم مولية الادبار هلعة لان الرجل كان فاتكاً عاتياً فتكاً يسفك الدماء مذراراً لاشباع اطماعه ونفسه الوثابة وإرضاء لواعجه الحادة الخيال وكان يظهر بين الفينة والفينة جراداً كريعاً تعف عن نفسه الشر شأن الرجال الذين يتقنون اياهم في اضطراب وقلق . فيتجلى في اخلاقهم مظهران متشاكسان مظهر القسوة ومظهر العطف على البشرية المتألمة

***

في بدء مُلك المنذر كان تباذ ملك الفرس قد عقد الصلح مع الحياطلة بعد حرب دامت بين الفرس والحياطلة عشر سنوات (٥٠٣ — ٥١٣) فاتيح له آنئذٍ ان يوجه انظاره إلى علاقاته بالروم لأن الروم كانوا قد استفادوا من انهماك الفرس بحرب الحياطلة فتقدموا من التخوم الفارسية وعززوا حصونهم في مدينة دارا ولم يصغ الانبراطور انسطاس إلى الاحتجاجات التي بعث بها اليه قباذ على لسان وفد اوفده اليه ولذلك يوسطنوس الاول Justin I (٥١٨ — ٥٢٧) سياسة سلفه العدائية تجاه الفرس . وقصارى القول توترت العلاقات بين الدولتين واشتعلت نار الحرب بينهما في ارمينية الفارسية [1]

وكان الانبراطور يوسطنوس الاول يخطب ودّ المنذر بن ماء السماء ويحاول ان يعقد معهُ معاهدة صلح وولاء . فأرسل اليهِ وفداً في هذه المطاوي للمفاوضة يخبرنا احد كتبة السريان شمعون اسقف ارشم أنهُ في ٢٠ كانون الثاني (يناير) سنة ٥٢٤ غادر مدينة الحيرة مع القس ابراهام الذي كان قد اوفده الامبراطور يوسطنوس الاول إلى المنذر ملك العرب ليفاوضهُ في عقد معاهدة صلح فالتقى الوفد بالمنذر في رملة Ramla [2]

نجهل الدواعي التي حدت بالانبراطور إلى إرسال هذا الوفد في ذلك التاريخ وغزوات المنذر بلاد الروم كانت بعد ذلك التاريخ على ما نحدس الاّ اننا نرتئي أن يوسطنوس أراد أن يتحالف مع ملك الحيرة ليأمن حدود برية الشام في زمن كانت علاقاته بالفرس غير مرضية والحرب على قاب قوسين او اندلعت نيرانها في ارمينية الفارسية

ومما يذكرهُ لنا شمعون الارشمي في رسالته هذه انهم (اي هو والقس ابراهام ورجرجس او مرجيس اسقف الرصافة) [3] علموا آنئذٍ أن المنذر أخذ رسالة من ذي نواس الحميري ملك اليمن اليهودي يستحثهُ فيها على اضطهاد النصارى وقتلهم في الحيرة كما فعل هو

(1) Sykes : His. of Persia : I:480-481 (2) Duval : Litt. Syriaque 148-151

(٣) السماني المكتبة الشرقية ٢ : ٣٦٤ طبعت رسالة شمعون الارشمي بالسريانية وترجمت الى اليونانية والبرتغالية

نصارى نجران [1] فأثر كلام ملك الحيرة في المنذر وأراد أن يمتحن ايمان المتنصرين من جيشه فدعا قوماً منهم وعرض عليهم جحود دينهم فقام احد ضباطه فقال له : ٥ ان تنصرنا قد سبق بجوسناك على عرش المبادرة فيهات أن تقنعنا بالعدول عن ديننا وعن كل ما كان رفقائي لا يثبتون في مذهبهم فاني لا أحمده مطلقاً ولست أخاف العذاب ولا الموت كما تحققت ذلك غير مرة رأيتني في وقائع الحروب اذا لم يك سيفي اقصر من سيف سواي ٥ فلما سمع المنذر كلامه عرف انهُ لا يستفيد شيئاً فعدل عن قصده وترك كلاً من جنوده يتبع دينه [2] . وفي سنة ٥٢٨ كانت الحرب سجالاً بين الروم والفرس وكان جيش الروم بقيادة بلساريوس Belisarius في بخسار فرأى الملك يوسطنيانوس Justinian (٥٢٧—٥٦٧) خليفة يوسطينوس الاول تقوية جيشه فقواه . وكان الجيش الفارسي بقيادة فروز مهران يتقدم الى دارا [3] وترى في هذه التضاعيف المنذر بن ماء السماء يغزو الحارث بن ابي شمر ملك غسان ويتغلب عليه ويغنم الغنائم الكثيرة والمال الوافر ويتعقب في اجتياح سورية ويتقدم الى انطاكية ويستولي عليها ويتقدم الى الالاهة العزّى فيحيا بشرية اربعمائة راهبة كما ذكره الكتبة السريان ويسلب ويسبي ويقتل وألقى الرعب في القلوب [4]

لم يرض الأسقف المنذر في حكمه بعد هذه الموقعة بل قام عليه الحارث بن حجر آكل المرار الكندي [5] وطرده من الحيرة واستولى عليها بمؤازرة كسرى قباذ لانهُ ضايقه في المزدكية مذهب مزدك بن بامدادان الزنديق الذي ظهر في ايام قباذ المذكور فوالاه قباذ المذكور ودان بالمزدكية الآمرة الناس بالتساوي في الاموال والاشتراك في النساء أي مذهب الشيوعيين [6] وكان المنذر قد رفض المزدكية فاغتاظ منهُ قباذ ونقم عليه [7] . وقال حمزة الاصفهاني [8] في هذا الموضوع . فضعف ملك العرب لان مادة قوة ملوك العرب كانت من جهة ملوك الفرس فعندما ملكت بكر بن وائل عليها الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار فهرب المنذر من دار مملكته الحيرة ومضى حتى نزل إلى الجرساء الكلبي وأقام عنده وكانت هذه الحوادث نحو سنة ٥٢٩ . ثم أن امرأ القيس الثالث [9] (والد المنذر بن ماء السماء) كان يغزو قبائل ربيعة فيبكي بهم

(١) اراجع عن هذا الاضطهاد الطبري ٢ : ١٠٥٥ وابن الاثير ١ : ١٧١ (٢) شيخو : النصرانية وآدابها ٨٩ (3) Sykes : His. of Pers. II:481 (٤) تاريخ ميخائيل الكبير طبعة شابو ٢ : ١٧٨ وتاريخ زكريا الخطيب طبعة لفن ٣ : ٢١٤ (٥) قال القلقشندي : في كتابه نهاية الارب في معرفة انساب العرب ص ٣٣١ كندة قبيلة من كهلان وكندا هذا ابوهم واسمه ثور وانما سمي كندة لانه كند ابوه اي كفر نعمته وكندة هذا هو ابن عفي جذام ولخم وعاملة وبلاد كندة باليمن وكان لكندة هؤلاء ملك بالحجاز واليمن ومنهم امرؤ القيس الشاعر المشهور . اه . وكانت كندة قبل ان يملك حجر عليهم بعير ملك بأكل القوي الضعيف فسدد امورهم وساسهم احسن سياسة واثرهم من التخصيب ارضهم (٥٠٣ م) ثم ملك بعده ابنه عمرو المقصور ثم استخلفه الحارث وعظم شأنه حتى ولاه قباذ على العراق زمناً (٦) ابو الفداء ١ : ٢١٠ (٧) ابن الاثير ١ : ١٧٥ (٨) كتاب تاريخ سني ملوك الارض والانبياء ٧١ (٩) يذكر الاصفهاني اسمه امرؤ القيس البدء ونطقه غلطاً والاصح الثالث

ومنهم أصاب ماء السماء وكانت امرأة أبي حيوط الخطار ثم أنهُ ترك الخمر في غزوة من غزواته فثارت به بكر بن وائل فهزموا رجاله وأسروه فبقيت تلك العداوة في نفوس بكر بن وائل إلى أن وفي سر الملك قباذ فعندها ارسلت بكر إلى الحارث بن عمرو الكندي فملكوه وحشدوا له ونهضوا معهُ حتى أخذ الملك ودانت له العرب (١)

بقي الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندي ملكاً على الحيرة حتى مات قباذ وتولى تاج الاكاسرة كسرى أنوشروان العادل سنة ٥٣١ وانتقض على مزدك فقتله وقتل اشياعه شر قتلة وطهر البلاد من الزندقة وبلغهُ أن الحارث آكل المرار دان بالزندقة وحامى الزنادقة بمعنى أن المزدكيين الذين طاردهم كسرى وخشوا قصاصه هربوا ملتجئين إلى الحارث في الحيرة فبعث كسرى إلى المنذر بن ماء السماء من اشخصه اليهِ فقواه وجال من الاساورة ورده إلى الحيرة ملكاً (٢) وكان الحارث يومئذٍ في الانبار فبلغهُ الامر فخرج هارباً في صحابه ورلده فرَّ بالثوية وتبعهُ المنذر بالخيل من تغلب وإياد ونمر فلحق بارض كلب ونجا وانتهبوا ماله ومجائنه وأخذت بنو تغلب ثمانية وأربعين نفساً من بني آكل المرار فقدموا بهم إلى المنذر (٣) فأمر المنذر بقتلهم بجفر الاملاك في دبار بني مرينا العباديين بين دير هند الكبرى والكوفة فقتلوا . ورثاهم امرؤ القيس الشاعر الذائع الصيت وهو حفيد الحارث آكل المرار وكان مع هؤلاء الذين قبضت عليهم تغلب من بني قومه وهو أفلت واليك مرثيته (٤)

ألا يا عينُ بكّي لي شنيتا ... وبكّي لي الملوك الذاهبينا
ملوكاً من بني حجر بن عمرو ... يساقون العشية يقتلونا
فلم في يوم معركة اصيبوا ... ولكن في ديار بني مرينا
ولم تغسل جاجمهم بغسل ... ولكن في الدماء مرملينا
تظل الطير عاكفة عليهم ... وتنتزع الحواجب والعيونا (٥)

وفي هذه الموقعة يقول عمرو بن كلثوم في معلقته (٦)

(١) يفهم من رواية الاصفهاني ان احتلال الحارث الكندي الحيرة كان بالرغم من قباذ ويؤيد هذه الرواية ما جاء في تاريخ الطبري ٢ : ٨٦ ان الحارث بن عمرو بن حجر الكندي ملك الحيرة بجوار رضاله تبع بن حسان بن تبع بن ملكيكرب ابن تبع الاقرن (٢) حمزة الاصفهاني ٧١ (٣) ابن الاثير ١ : ٤٧٥ (٤) الاغاني ٨ : ٦٢ وشعراء النصرانية ٧

(٥) وجاء في معجم البلدان في مادة (دير بني مرينا) وفي شعراء النصرانية ص ٥٧ ان امرأ القيس قال هذا الشعر في وقعة يختلف وصفها عما جاء في الاغاني كما اتينا ذكره في النص اعلاه وهو ان قيس بن سلمة جد الحارث آكل المرار اغار على المنذر فهزمه حتى ادخله الحورنق ومعه ابناه قابوس وعمرو ولم يكن ولد له يومئذ المنذر ابن المنذر فمكث المنذر ذو القرنين وهو ابن ماء السماء حولا ثم اغار عليهم بذات الشقوق فأصاب منهم اثني عشر شاباً من بني حجر بن عمرو كانوا يتصيدون وكان منهم امرؤ القيس الشاعر ولكنه أفلت وقدم المنذر في الحيرة بالفتية فحبسهم بالقصر الابيض شهرين ثم ارسل اليهم ان يؤتى بهم فحتى ان لا يؤتى بهم حتى يؤخذوا من رسله فرسلوا اليهم ان أضربوا اعناقهم حتى ما اتاكم الرسول فأتاهم الرسول وهم عند الجفر فضربوا اعناقهم به

(٦) الاغاني ٨ : ٦٢

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

كان الحارث آكل المرار قد نرّق ولده في قبائل العرب فملّك ابنه حجراً على بني أسد وغطفان وملك ابنهُ شرحبيل (قبل يوم الكلاب) على بكر بن وائل بأسرها وبني حنظلة وطوائف من بني دارم بن مُرّ والرباب وملك ابنه معديكرب على بني تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة وطوائف من بني دارم ابن حنظلة والضبائع وهم بنو رقية وملك ابنه عبدالله على عبد القيس وملك ابنه سلمة على قيس[1] فكان المنذر بن ماء السماء يتحين الفرص للانتقام من اعقاب الحارث فوقع خلاف بين ابني الحارث شرحبيل وسلمة آلت الى حرب وقتال وبعد وقائع دامية في يوم الكلاب التجأ أحدهم سلمة ببني تغلب فاخرجت تغلب سلمة من بينهم فلجأ الى بكر بن وائل فلما صار عند بكر اذعنت له وحشدت عليه وقالوا لا يملكنا غيرك فبعث اليهم المنذر يدعوهم الى طاعته فأبوا ذلك فخلف المنذر ليسير اليهم فان ظفر بهم فليذبحنهم على قلة جبل اوارة حتى يبلغ الدم الحضيض وسار اليهم بجموعهم فالتقوا باوارة فاقتتلوا قتالاً شديداً وانهزمت الواقعة عن هزيمة بكر واسر يزيد بن شرحبيل الكندي فأمر المنذر بقتله. وقُتل في المعركة بشر كثير واسر المنذر من بكر اسرى كثيرة فأمر بهم فذبحوا على جبل اوارة فجعل الدم يجمد تقيأ له بيت اللعن لو ذهبت كل بكري على وجه الارض لم يبلغ دماؤهم الحضيض ولكن لو صببت عليه الماء لفعل فسال الدم الى الحضيض وأمر بالنساء ان يحرقن بالنار فتشفع رجل من قيس فأطلقهن المنذر واشتهرت هذه المرقعة عند العرب بيوم اوارة الاول[2]

لا نعلم متى حدثت موقعة يوم اوارة. هل بعد عودة المنذر الى حكم الحيرة ثانياً أو بعد غزوته سورية للمرة الثانية في عهد كسرى انو شروان كما سيجيء ذكرها. وبعد زوال ملك الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار قال امرؤ القيس يرثي ملك جده ويصف تباريح الزمان:

أبعد الحارث الملك بن عمرو له مُلْكُ العراق الى عمانِ
مجاورة بني شَجَنجى بن جَرْمٍ هوانًا ما ابيح من الهوانِ
ويسقيها بنو شَجَنجى بن جَرْمٍ مَصيرَهُمُ حنانك ذا الحنانِ[3]

وبنى المنذر بن ماء السماء بعارد آل آكل المرار ويبطش بهم وهم يهابونهُ. ومنهم امرؤ القيس الشاعر الطائر الشهرة. فلبثوا عهداً عند الحرث بن شهاب حتى بعث اليه المنذر مائة من رجاله يوعده بالحرب ان لم يسلم اليه بني آكل المرار فأسلمهم ونجا امرؤ القيس. فخرج على وجهه وأقبل على فرسه الشقراء لاجئاً الى ابن عمته عمرو بن المنذر بن ماء السماء. لان ام عمرو هند بنت عمرو بن حجر بن آكل المرار وذلك بعد قتل ابيه واعمامه وتفرق اهل بيته وكان عمرو يومئذ خليفة لابيه المنذر ببقة وهي بين الانبار وهيت فمدحه وذكر صهره ورحمه

(١) الاغاني ٦٢ : ٦٣ (٢) ابن الاثير ١ : ٢٢٨ (٣) شعراء النصرانية ٦٧

وانهُ قد تعلق بجماله وجاء اليهِ فأجاره عمرو ومكث عنده زماناً ثم بلغ المنذر مكانه عنده فطلبه واندره عمرو . فهرب الى هانيء بن مسعود بن عامر احد رؤساء بني شيبان فلم يجره وقال له انا في دين الملك فأتى سعد بن ضباب الايادي سيد قومه فأجاره[1]

وذكر مؤرخو الروم مثل نسوز وبروكوب وغيرهما ان امرئ القيس وتسمونهُ قيساً قبل ورود على القيصر يوستنيانوس اوفد اليهِ وفداً يطلب منهُ النجدة على اسد على المنذر ملك العراق[2]

ذكر سايكس[3] ان في سنة ٥٣١ اتخذت التدابير في بلاد فارس لاحتشاد سورية بمحالفة العرب بامرة المنذر بعد ان حققت مفاوضات الصلح مع الروم الا ان الملك الساساني خسرو وقف على هذا الخبر وسير عساكره سيراً حثيثاً وجعله حائلاً بين الغزاة وانطاكية . وما فشل الجيش الفارسي في تحقيق جُلّ مقصدهم انجلوا عن البلاد الرومية وكان في نية القائد الروماني ان يفسح لهم المجال في جلائهم هذا الا ان عسكره ضجّ ساخطاً وأراد ان يطارد الفرس موافقهم مُرغماً ولكنهم خسروا ونجوّج موقفهم ولم يتمكن قائدهم من الخلاص من هذه الورطة الا بهدنة عسكرية . وكانت هذه آخر موقعة من الحروب وجاء خبر موت قباذ آخذ فكف الجيش الفارسي والمجلي

يفهم من رواية سايكس ان في اخريات أيام قباذ كان المنذر في رأس العرب الذين نصروا الفرس في هذه الحرب مع ان مؤرخي العرب ذكروا ان المنذر كان على غير وئام مع قباذ وان الحارث آكل المرار كان قد اغتصب ملك الحيرة بمؤازرة قباذ نفسه كما مرَّ بنا قبيل هذا . فان صحّت رواية سايكس هذه فلا نجد لتعليلها سبيلاً الا ان العلائق بين المنذر وقباذ كانت قد بدأت بالتحسن وكان ملك الفرس محتاجاً الى المنذر وكان المنذر يرجو خيراً من التقرب من خسرو قباذ ورعا كان يطمع في الغزو . ومع هذا فان بعض المؤرخين يروون ان زحف المنذر على سورية في هذه السنة اعني ٥٣١ كان نجدةً لكسرى أنو شروان وليس لقباذ والواقع ان في هذه السنة مات قباذ وملك انو شروان وعقد يوسطنيانوس معاهدة صلح مع الفرس[3] لانهُ كان يرمي الى ايجاد صلات سلم في الشرق ليتسع له مجال الحرب والفتح في ايطالية وافريقية ولم يدخل اسم المنذر في هذه المعاهدة

لم يدم الصلح طويلاً بين أنوشروان ويوسطنيانوس اذ ساء انوشروان أخبار النصر الذي ناله الروم في افريقية وايطالية فاوعز الى عامله المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة أن يغزو سورية وكان آنئذٍ اختلاف بينهُ وبين الحارث بن جبلة الغساني في ملكية طريق للعاشية في جنوبي تدمر يدّعي المنذر انها من مملكته وينازعهُ في ذلك ملك غسان فاهتبل المنذر هذه الفرصة وحارب الحارث وانتصر أنوشروان للمنذر وانتصر الروم للحارث فثارت الحرب بين الدولتين وغزا انوشروان سورية وآسية الصغرى (ستأتي البقية)

(١) الاغاني ٨: ٦٧ (٢) شعراء النصرانية ٣٠ Sykes : His. of Persia 1 : 452 (3)